سُورَةُ الْهُمَزَةِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ۝ الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝ نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ ۝ الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾

صدق الله العظيم

السورة مكية .

والمشهور فى ترتيب نزولها أنها الثانية والثلاثون .

* * *

قيل نزلت فى «الأخنس بن شريق» كان يلمز الناسَ ويغتابهم وخاصة رسول الله ﷺ .

وقيل نزلت فى «الوليد بن المغيرة المخزومى» كان يغتاب المصطفى عليه الصلاة والسلام من ورائه ، ويطعن عليه فى وجهه[1] .

وقال محمد بن إسحاق فى السيرة النبوية : «ما زلنا نسمع أن هذه السورة نزلت فى أُبَيّ بن خلف» .

وأيًّا مَنْ كان الذى نزلت فيه السورة ، فالنذيرُ عام لكلِّ هُمزة لمزة . وهذا هو الصواب عند الإمام الطبرى .

وقال الزمخشرى فى (الكشاف) ويجوز أن يكون السبب خاصاً والوعيد عاماً ليتناول كلَّ من باشر ذلك القبيح .

* * *

ويلٌ : كلمة عذابٍ وسخط . ويكثر استعمالها مع هاء الندبة فى التفجع عند الكوارث .

وتأولها بعض المفسرين فى آية الهمزة ، بأنها «وادٍ فى جهنم يسيل من صديد أهل النار وقيحهم»[2] .

ونستقرئ مواضع الاستعمال فى القرآن الكريم للكلمة ، فنجدها فى أربعين موضعاً . منها ثلاث عشرة مرة ، معرفةً بالإضافة ، فى موقف التحسر والتفجع والندبة ، بآيات :

(القلم ٣١ ، هود ٧٢ ، الفرقان ٢٨ ، الكهف ٤٩ ، الأحقاف ١٨ ، طه ٦١ ، القصص ٨٠ ، الأنبياء ١٤ ، ٤٦ ، ٩٧ ، يس ٥٢ ، الصافات ٢٠ ، المائدة ٣١) .

(١ و ٢) تفسير الطبرى ، ومثله فى الكشاف وتفسير الرازى : سورة الهمزة .

وباقى الآيات الأربعين ، فى سياق النذير من الله سبحانه .

وباستثناء آية الأنبياء : «ولكم الويلُ مما تصفون» مُعَرَّفة بأل ، جاءت «ويل» نكرة ، بمثل الأسلوب فى آية الهمزة .

والنذيرُ فى كل آياتها من الله سبحانه ، بويل : للكافرين ، والمشركين ، والمكذبين ، والظالمين ، والمطففين ، والمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، والذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ، والقاسية قلوبهم ، وكل أفاك أثيم ، وكل هُمَزة لمزة .

والوعيد فيها بِوَيلٍ : من مشهدِ يوم عظيم ، ومن النار ، وعذابٍ أليم ، ومن يوم الدين ، ويومِهم الذى يوعَدون ، والنبذِ فى الحُطَمة .

وفى هذا الاستقراء ما يكفى إدراكا لما للفظِ ويلٍ من رهبة ، وما يثير من خوف ورعب ، دون أن نحتاج فيه إلى تأويلِ بوادٍ فى جهنم يسيل قيحاً ، أحسبه من الإسرائيليات التى أدخل فيها اليهود عناصر من وصفهم لجهنم .

* * *

ولم تأت «هُمَزَة» بهذه الصيغة فى القرآن الكريم إلا هنا ، وإن جاء من مادتها صيغتان أخريان :

همَّاز : «ولا تُطِعْ كلَّ حَلَّافٍ مهين ، هماز مشَّاء بِنميم ، منَّاعٍ للخير مُعْتَدٍ أثيم» (القلم ١١)

وهَمَزات : «وقلْ ربِّ أعوذ بكَ من هَمَزاتِ الشياطينِ» (المؤمنون ٩٧)

* * *

كذلك لم تأت صيغة «لُمَزَة» فى القرآن كله إلا فى آية الهمزة ، وجاء الفعل مضارعاً فى ثلاث آيات :

«ولا تَلمِزوا أنفسَكم ولا تَنَابَزوا بالألقابِ» (الحجرات ١١)

«ومنهم من يَلمِزُكَ فى الصدقات فإنْ أُعطُوا منها رَضُوا وإن لم يُعْطَوا منها إذا هم يسخطون» . (التوبة ٥٨)

ومعها آية (التوبة ٧٩) فى اللمز فى الصدقات أيضاً .

وهذا هو كل ما فى القرآن الكريم من مادتى الهمز واللمز .

* * *

ولا خلاف ، أعلمه ، بين اللغويين والمفسرين ، فى أن مثل صيغة هُمَزَة ولُمَزَة ، تستعمل فيمن يكثُر منه فعلُها حتى كأن ذلك عادة منه قد ضَرِى بها . . .

ولكنهم لم يتفقوا على الدلالة ، فمنهم من لا يُفرق بين الهمزة واللمزة .

ومنهم من يجعل الهمزَ للتحقير والعيبِ فى الغيبة ، أو التعريضِ بالإشارة والكلام المبهم ، أما اللمز فهو التحقير والهزء صراحةً ومواجهةً .

ومنهم من عكس الوضع ، فجعل اللمزَ فى الغيبة ، والهمزَ فى المواجهة والحضور[1] .

ونحتكم إلى القرآن الكريم فيجلو لنا الفرق بين اللفظين فى الدلالة ، حين يستعمل الهمزَ لوسوسة الشيطان (المؤمنون) والنميمة (القلم) .

وفيها الخفاء والغيبة .

أما اللمز فيستعمله مع التنابز بالألقاب (الحجرات) وفى الاعتراض على تقسيم الصدقات (التوبة) .

ولا يكون ذلك إلا مواجهةً .

وهذه التفرقة تؤكد أصالَةَ الاستعمال اللغوى الذى فرَّقت فيه العربية بين المادتين : فاستعملت اللمزَ فى الضرب والطعن .

واستعملت الهمزَ حِسياً فى الهمزة للنقرةِ والمكانِ المنخسف ، والمهاز حديدة فى مؤخر خُفِّ الذى يروض الفرس ، والمهَامِزُ مقارع النَّخاسين ينخسون بها الدواب والرقيقَ . ولا يكون النخس فى العربية إلا فى مؤخر الدابة أو جنبها دون وجهها وصدرها .

وبهذا كله نستأنس فى فهم الآية ، فلا نذهب مع الشيخ محمد عبده إلى «أن الهمز

---

(١) انظر تفصيل هذا الخلاف ، فى الرازى : جـ ٨ سورة الهمزة .

يكون بالعين والشدق واليد ، حركات تشير إلى التحقير والهزء ، واللمز يكون باللسان »[١] .

وإنما نطمئن إلى أن الهُمزة هو الذى يدأب على تحقير الناس والإيغال فى تجريحهم من خلفِ ظهورهم ، واللمزة الذى يدأبُ على مواجهتهم بكلمةِ السوء تحقيراً لهم وغضاً من شأنهم .

* * *

ويصل القرآن الكريم ، الكلامَ عن كلِّ همزة لمزة :

« الَّذِى جَمَعَ مَالاً وعَدَّدَهُ » .

قرأ « ابن عامر ، وحمزة ، والكسائى » : « جَمَّعَ » بتشديد الميم . والباقون بفتحها[٢] .

وأما « عدَّدَه » فلا خلاف بينهم فيه ، وهم مجمعون على قراءته بالتشديد إلا ما رُوى عن قراءة فيها بتخفيف الدال ، بإسناد غير ثابت . قال الإمام الطبرى : « وهذه قراءة لا أستجيز القراءةَ بها ، لخلافِها قراءةَ الأمصار وخروجِها عما عليه الحُجة مجمعة فى ذلك »[٣] .

وعلى قراءة الجمهور :

قال الإمام الطبرى فى تفسير الجمع :

« جمعَ مالا فأوعاه وحفِظه وأحصى عَدَده ولم ينفقه فى سبيل الله ولم يؤد حق الله فيه » .

وفرَّق الفخر الرازى بين القراءتين ، فقال : « إن جمَّع بالتشديد يفيد أنه جمَّعه من ههنا وههنا ، وأنه لم يجمعه فى يوم واحد ولا فى يومين ولا فى شهر ولا فى شهرين . وأما جمَع بالتخفيف فلا يفيد ذلك . . .

وقوله ، تعالى : وعدّده ، فيه وجوه : أنه مأخوذ من العُدَّة وهى الذخيرة لحوادث الدهر ، أو هو من العَدِّ والإحصاء . أو – على القراءة بالتخفيف – جمع المال وضبط

---

(١) تفسير جزء عم : سورة الهمزة .

(٢) التيسير للدانى : ٢٢٥ .

(٣) جامع البيان : ٣٠/٤٨٩ .

عدده ، أو هو من قولهم : فلان ذو عدد»[١] .

والجمعُ فى اللغة ضد التفرق ، مع ملحظٍ من التفاوت بين أفراده : يطلق اسماً على المجموع وعلى الجماعة من الناس أو غيرهم . وجاع الناس أخلاطُهم من قبائل شتى . والمجتمعُ ما اجتمع من الرمال من هنا ومن هناك . والجمعُ صنف من التمر أو النخل خرج من النوى لا يعرف اسمُه .

ويأتى الجمع مصدراً ، بمعنى لَمِّ الشتات المتفرق أفراداً . والإجماع اتفاقُ الجماعة على رأى أو عمل ، وتجمعوا اجتمعوا من هنا ومن هناك .

وفى المصطلح الدينى سُميت صلاة الجماعة ، وصلاة الجمعة باجتماع الناس على اختلافهم للصلاة ، كما سُمى اليومُ الآخر يومَ الجمع ، يجمع الناس على اختلافِ أجناسهم وأممهم وطبقاتهم وعقائدهم .

ويُلحظ فى الاستعمال القرآنى للمادة ، أنها تجىء أكثر ما تجىء ليوم القيامة : فى نحو أربعين موضعاً .

ومن الفعل الثلاثى ، جاء : جَمْع ، وجميع ، وجامع ، ومجموع ومجموعون ، ومَجْمع . ولم يأت الفعل «جمَّع» بتضعيف الميم ، فى المصدر أو أى مشتق من مشتقاته .

وجاء الفعل ثلاثياً ثمانى عشرة مرة ، لا نخطئ فيها حِسَّ العربية الأصيل للمادة ، فى الدلالة على لَمِّ الشتات المتفرق المختلط .

منها ثلاث عشرة مرة ، الفعل فيها مسند إلى الله سبحانه ، لو شاء لجمع الناسَ على الهدى ولم يتفرقوا فى الدين ، وهو تعالى قادر على أن يجمعَ عظام الإنسان المفتتة بالبلى ، وهو يجمع الناسَ على اختلافهم ليوم الفصل ، يومِ الجمع ، ذلك يومٌ مجموعٌ له الناس وذلك يوم مشهود .

والمرات الخمس الأخرى ، فى رحمة ربك «خير مما يجمعون» بآيات (آل عمران ١٥٧ ، ويونس ٥٨ ، والزخرف ٣٢) على ما يفيده الإطلاق من الجمع اللم . وآية (آل عمران ١٧٣) فى «الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً» بما

(١) التفسير الكبير : جـ٨ ، الهمزة .

يفيد الجمعُ فيها من الحشدِ لشتّى الجند والسلاح .

ولا يتخلف الملحظ فى آية المحارم «وأن تجمعوا بين الأختين» وإنما يحل الجمعُ حين تفترق الدماء وتختلف الأرحام والأصلاب .

فلحظ الحشد مع الاختلاط ، هو ما يعطيه هذا الاستقراء عن قرب ، وبه نفهم آية الهمزة فى جمع مالٍ مختلط ، والتلهى بتعديده إحصاءً وتكاثراً وأثرة ، ومعها آية المعارج :

«كلا إنها لَظَى ، نَزَّاعَة للشَّوَى ، تدعو مَن أدبر وتولى ، وجَمَع فأوْعى» ١٨ .

وإذن فهى فتنة المال ووثنيته ، وما تدفع إليه من أثرة وتجبر وخيلاء ، وازدراء للناس وتحقيرهم والغض من شأنهم خفيةً وعلانية ، من وراء ظهورهم وفى وجوههم ، من حيث لا يعلمون أو يعلمون .

• • •

«يَحْسَبُ أن مَالَهُ أَخْلَدَهُ» .

والعربية تستعمل الحسابَ والمحاسبة حِسيًّا فى العدِّ والإحصاء «ولتعلموا عدد السنين والحساب» .

كما تستعمله معنوياً فى التقدير والتدبير ، وفى المسئولية والمؤاخذة ، والحسيب الرقيب المحاسِب .

ومنه نُقِل إلى المصطلح الدينى فى محاسبة الإنسان على عمله «يوم الحساب» وأكثر ما يجىء الفعل الرباعى ، بهذه الدلالة ، مسنداً إلى الله تعالى .

أما الثلاثى ، فالعربية تفرق فى مضارعه بين المادى والمعنوى : فيغلب كسرُ السين للحِساب بمعنى العَدّ ، وفتحها فى معنى التقدير أو التدبير .

وخُصَّ الحَسَبُ بما يُعَدُّ من مفاخر الآباء .

وفى القرآن الكريم : جاء الفعل الثلاثى ثلاث عشرة مرة ، يؤذِنُ سياقُها أنها بمعنى التقدير عن ظن وتصور ، كالذى فى آيات :

«قيل لها ادخلى الصرْحَ فلما رأته حَسِبَتْه لُجَّةً وكَشَفَتْ عن ساقيها»

(النمل ٤٤)

ومعها آيتا (الكهف ٩ والإنسان ١٩)

ويكثر مجيئه بأسلوب الاستفهام الإنكارى ، فيعطيه السياق دلالة ضلال الوهم ، والخطأ فى التقدير ، مثل آيات :

«أحَسِبَ الناسُ أن يُترَكوا أنْ يقولوا آمَنّا وهم لا يُفتَنون» ؟

(العنكبوت ٢)

«أم حَسِبَ الذين اجترحوا السيئاتِ أن نجعلَهم كالذين آمنو وعملوا الصالحاتِ سواءً محياهم ومماتهم» ؟ (الجاثية ٢١)

«أم حسِب الذين فى قلوبِهم مرضٌ أن لن يُخرِجَ اللهُ أضغانهم»

(محمد ٢٩)

«أفحسبتم أنما خلقناكم عَبَثاً وأنكم إلينا لا تُرجَعون» (المؤمنون ١١٥)

ومعها آيات : (العنكبوت ٤ ، البقرة ٢١٤ ، آل عمران ١٤٢ ، التوبة ١٦)

ويتأيد ملحظ استعماله فى غيرِ العَدِّ الحسابى ، بمجىء الفعل المضارع مفتوح السين فى آياته الإحدى والثلاثين ، فى سياق النهى أو التحذير من خطإ التقدير على الظن أو التوهم . والفعل فيها جميعاً مسند إلى المخلوقين .

ويأذن لنا هذا الاستقراء ، فى حمل «يَحْسَب» فى آية الهُمزة ، على التوهم الذى يخطئ حقيقةَ التقدير ، فى حِسابه أن مالَه أخلده .

والخلد فى العربية البقاء والدوام ، استعملته حسياً فى الخوالِد وهى الجبال الرواسى الثوابتُ والحجارة والصخور لطول بقائها . ومنه قيل المخلد للرجل الذى أسَنَّ دون أن يشيب . والخلود البقاء الدائم ، ضد الفناء .

والقرآن الكريم يستعمل الخلود بملحظ لا يتخلف ، فهو فيه دائماً فى سياق الحديث عن الآخرة ، إما خلوداً فى الجنة والنعيم ودار الخلد ، أو خلوداً فى العذاب والنار .

وحين يستعمله فى الدنيا ، فعلى وجه النفى والإنكار أن يكون فيها خلودٌ وإنما هى دار فناء . ترى ذلك واضحاً فى مثل آيات :

«وما جعلنا لِبَشرٍ من قبلِك الخُلدَ أفإن مِتَّ فهم الخالدون» (الأنبياء ٣٤)

«وما جعلناهم جَسَداً لا يأكلون الطعامَ وما كانُوا خالدين» (الأنبياء ٨)

«وتتخذون مصانعَ لعلكم تخلدون» (الشعراء ١٢٩)

ومعها آية الهمزة فى «الذى جمع مالاً وعدده ، يحسَبُ أن مالَه أخلده» فيُضله الوهم ضلالا بعيداً ، ويعميه عن حقيقة الدنيا الفانية التى يتهالك على حطامها .

* * *

«كَلا لَيُنْبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ» .

مع الردع والزجر بـ : كَلا ، يأتى هذا النبذُ فى الحطمة .

والنبذ فى العربية الطرحُ لما هو هين وحقير ، والمنبوذ ولد الزنى ، واللقيط الملقى فى الطريق . وقبر منبوذ بعيد منعزل . والنبيذة الناقة لا تؤكل من فرط سقمها وهزالها ، والأنباذ الأوباش .

والانتباذ التنحى والانسحاب إلى مكان مهجور ، ومنه فى القرآن آيتا مريم «إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً» ، «فحملته فانتبذتْ به مكاناً قَصِياً» .

والنبذ فى الحرب أن يخرج أحد الفريقين إلى حيث انتحى الآخرُ وانتبذ ، ومنه آية الأنفال ٥٨ :

«وإما تخافَنَّ من قوم خيانةً فانبِذْ إليهم على سَواء»

وكل ما فى القرآن من النبذ ، غير آيتى مريم والأنفال ، هو من الطرح والنفى ، عن هوان بالمنبوذِ على النابذ .

«لولا أن تَداركه نعمةٌ من ربِّه لَنُبِذَ بالعراء وهو مذموم» (القلم ٤٩)
(والصافات ١٤٥)

«فأخذناه وجنودَه فنبذناهم فى اليَمِّ» (القصص ٤٠)
(والذاريات ٤٠)

«أَوَ كلما عاهَدوا عهداً نبذه فريقٌ منهم» (البقرة ١٠٠)

وبكل ما فى لفظ النبذ من دلالة على الهوان والضياع ، يأتى الفعل فى الهُمَزَة ، مؤكَّداً باللام والنون المشددة ، وعيداً لعابِد المال الذى يحتقر الناسَ ويزدريهم ، ويدأب على تجريحهم همزاً ولمزاً .

وقد فسرها الإمام «الطبرى» بالقذف .

ولمح «الفخر الرازى» ما فى النبذ من إهانة .

والإهانة أصيلة فى دلالة النبذ لغةً ، والبيان القرآنى يجلوها على هذا النحو الباهر حين يزجر بها ذلك المتفاخرَ المتعالى المغرور بمالِه يحسَب أنه أخلده ، وإنما ينتظره خلودٌ آخر مهين أليم ، منبوذاً فى الحطمة .

وأصل الحطم فى العربية : التهشيم مع اختصاصٍ بما هو يابس كالعظام ، وقيل الحَطُوم للأسدِ يحطم كل شىء ويهشمه ، وللريح تقوض البناء . والحاطوم والحطمة السنة المشئومة . ورجل حَطِمٌ يلتهم كل شىء ولا يشبع . وراعٍ حُطَمة وحُطَم ، كأنه يحطم الماشية عند سوقها ، لعنفه .

وهذا الملحظ الأصيل من التهشيم مع العنف والقسوة ، لا تخطئه فى الاستعمال القرآنى للمادة ، فى المواضع الستة التى جاءت فيها :

بصيغة الفعل المضارع فى آية النمل ١٨ :

«قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنَكم لا يحطمنَّكم سليمان وجنودهُ وهم لا يشعرون» .

ولنا أن نتصور وطأة الحَطْم من سليمانَ وجنوده ، للنملِ مع ضآلة جرمه ووهَن قواه .

وثلاث مرات بصيغة حُطام فى آيتى (الزمر ٢١ ، والحديد ٢٠) للزرع المصفر اليبيس المهشم ، تمثيلا لحطام الدنيا «وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» ومعهما آية الواقعة ٦٥ .

ومرتان بصيغة حُطَمة التى انفردت بها آيتا الهمزة .

قالوا فى تفسيرها : هى اسم من أسماء النار ، وهى الدركة الثانية من دركاتها .

وفى الطبرى عن «مقاتل» : تحطم العظام وتأكل اللحم حتى تهجم على القلوب . ورووا فيه حديثاً : «إن المَلَك ليَأخذ الكافر فيكسره على صلبه كما توضع الخشبةُ على الركبة فتكسر . ثم يرمى به إلى النار»[1] .

وأخذه الزمخشرى فى (الكشاف) من معنى النار تحطم كل ما يلقى فيها كالرجل الأكول الحطمة .

---

(١) فى تفسير الطبرى جـ ٨ ، وتفسير الرازى : سورة الهمزة .

والقرآن يغنينا عن تأويلٍ بما تولى من بيان الحطمة فى الآيات بعدها ، وتبدأ بالسؤال :

«وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ» .

والدراية أخص من المعرفة .

والخاصة البيانية لهذا الأسلوب : وما أدراك ، استعماله فيما يجاوز دراية المسئول : إما لجلالِ الأمر وعظمه كآيتى : القدر «وما أدراك ما ليلة القدر» ، والعقبة «وما أدراك ما العقبة» .

وإما لكونه من الغيبِ المتعلق بالمصير فى اليوم الآخر ، يتجاوز دراية البشر ويعييهم إدراكُه وتمثلُه ، كآيات :

«سأُصْليه سَقَرَ . وما أدراكَ ما سَقَرُ» (المدثر ٢٧)

«الحاقَّةُ . ما الحاقة . وما أدراكَ ما الحاقَّةُ» (الحاقة ١ — ٣)

«وما أدراك ما القارعةُ» ، «وما أدراك ماهِيَه» (القارعة ٣ ، ١٠)

«لِيومِ الفصلِ . وما أدراك ما يومُ الفصل» (المرسلات ١٤)

«وما أدراكَ ما يومُ الدين . ثم ما أدراك ما يومُ الدين» (الانفطار ١٧ ، ١٨)

«كلا إن كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِى سِجينٍ . وما أدراك ما سِجِّين»

«كلا إن كتابَ الأبرار لَفِى عِليين . وما أدراك ما عِلِّيُّون»

(المطففين ٨ ، ١٨)

وفى كل آية من هذه الآيات ، يُعقب على السؤال المثير «وما أدراك» ؟ ببيانِ مناطِ العُلو أو الرهبة والهول . فلنا إذن أن نلتمس مثلَ ذلك فيما تلا آية : «وما أدراك ما الحُطمة» من بيانٍ لها فى الآيات بعدها :

* * *

«نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ . الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ» .

وباستقراء الاستعمال القرآنى للنار ، نلحظ غلبةَ مجيئها لنارِ الجحيم فى الآخرة ، حيث وردت فيها نحو مائة وعشرين مرة ، فى مقابل خمس وعشرين مرة للنار فى

الدنيا ، إما على الحقيقة فى النار المعروفة المعهودة ، وإما على المجاز فى مثل نار الحرب (المائدة ٦٤) .

ومع كثرة استعمال النار فى القرآن لنار الجحيم ، لم تأت مضافةً إلى الله تعالى إلا فى «الهُمزة» فشهد ذلك بفداحةِ النُّكْرِ لفتنةِ المال وما تُغرى به من تكبر وبغى ، وعدوان وضلال .

والإيقاد الإشعالُ ، وأصلهُ فى العربية للنارِ إلا أن يُستعمل مجازاً فى الفتنة والحربِ والضغينة وما أشبهها .

وقد جاءت مادة (وقد) فى القرآن الكريم إحدى عشرة مرة ، اثنتان منها على المجاز فى آية النور : «كأنها كوكب دُرّىٌ يوقَد من شجرة مباركة» ٣٥

وبآية (المائدة) فى اليهود : «كلما أوقدوا ناراً للحربِ أطفأها الله ويسعون فى الأرض فساداً» ٦٤

وخمس مرات للنار المعروفة ، إيقاداً ووقودا واستيقادا :

(يس ٨٠ ، الرعد ١٧ ، القصص ٣٨ ، البروج ٥ ، البقرة ١٧) .

وأربع مرات لنار الجحيم «وقودُها الناسُ والحجارة» بآيات :

(البقرة ٢٤ ، وآل عمران ١٠ ، والتحريم ٦) .

و«نار الله الموقدة» فى آية الهمزة .

والنار لا تكون إلا مُوقَدة ، فوصفُها بالموقدة فى مقام النذير ، تأكيدٌ للوعيد وإرهابٌ بهولهِ .

وليس من الضرورى أن نتأول اطِّلاعَ نار الله الموقدة على الأفئدة ، بأنها : «تعلوها وتُقلبها وتشتمل عليها» كما ذهب الزمخشرى وأخذه الشيخ محمد عبده ، ولا بأنها «تأكل اللحومَ حتى تهجم على القلوب» كما نقل الطبرى .

وأوْلى من هذا الهجوم والأكل ، أن نلمح أسرار التعبير فى هذا البيان القرآنى ، فنتدبر موضع الأفئدة هنا ، ولا نقول إنها جاءت مكان القلوب لمجرد ملحظ لفظى فى رعاية الفاصلة ، بل لأن القلب قد يطلق فى العربية على العضو العضلى المعروف من أعضاء الجسم ، أما الفؤاد فلا يطلق إلا على المعنوى من موضع الشعور والعواطف

والعقيدة والأهواء . وبهذا المعنى جاء الفؤاد فى القرآن مفرداً وجمعاً ، ست عشرة مرة ، ليس فيها ما يُحمل على الجارحة ، كآيات :

«وكلاًّ نقُصُّ عليك من أنباءِ الرسلِ ما نُثَبِّتُ به فؤادَك» (هود ١٢٠)

«كذلك لنُثبت به فؤادَك ورتَّلناه ترتيلا» (الفرقان ٣٢)

«ما كَذَبَ الفؤادُ ما رأى» (النجم ١١)

«وأصبح فؤادُ أمِّ موسى فارغاً» (القصص ١٠)

«فاجعل أفئدةً من الناسِ تَهوِى إليهم» (إبراهيم ٣٧)

«ولِتَصْغَى إليه أفئدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة» (الأنعام ١١٣)

«مهطعينَ مقنعى رءوسِهم لا يَرتدُّ إليهم طَرْفُهم وأفئدتُهم هواءٌ»

(إبراهيم ٤٣)

والزمخشرى التفت إلى أن الأفئدة مواطنُ الكفر والعقائد الفاسدة ، كما قال الشيخ محمد عبده إنها موضع الوجدان والشعور .

وبقى أن نلتفت إلى أن هذه المعنويات هى الغالبة كذلك على استعمال القرآن للفظ قلب وقلوب . إذ يأتى اللفظ مع الاطمئنان والسكينة والرحمة والتآلف والخشوع والوجل والفقه والطهر . كما يأتى مع الارتياب واللهو والتقلب والرعب والوجل والخوف والاشمئزاز والقسوة والتكبر والجبروت ، والزيغ والمرض والإثم والغفلة والعمى . . . وكلها مما لا مجال له فى القلب بدلالته العضوية التى تعرفها له العربية فى مألوف الاستعمال ومنه فى القرآن آية الأحزاب :

«ما جعل اللهُ لرجلٍ من قلبين فى جوفه» .

وإذن يكون إيثار الأفئدة هنا لا لنسق الفاصلة فحسب ، ولكنه كذلك لتخليص الأفئدة من حِسِّ العضوية التى تدخل على دلالة لفظ القلوب فى المألوف من لغة العرب ، إذ نستعمل القلب بمعناه العضوى ، ولا نستعمل الفؤادَ بهذا المعنى قط . وإسناد الاطلاع إلى نار الله الموقدة ، فيه تشخيصٌ لهولها وتقريرٌ لفاعليتها ، على نحو ما شخَّص القرآن الكريم هذا الهول بتقرير فاعلية النار ، فى آيات أخرى ، تأتى النار فيها :

مبصرة منفعلة : «إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تَغَيُّظاً وزفيراً»

(الفرقان ١٢)

«إذا ألقُوا فيها سَمِعوا لها شهيقاً وهيَ تفور» .

ناطقة داعية : «تكادُ تَمَيَّزُ من الغيظِ» (الملك ٧ ، ٨)

«تدعو مَن أدبر وتولى ، وجمع فأوعى» (المعارج ١٧)

بل أعطاها كذلك صفة الولاية على المفتونين المغرورين والكفار الجاحدين :

«فاليومَ لا يُؤخذُ منكم فديةٌ ولا من الذين كفروا ، مأْواكم النارُ هي مولاكم وبئس المصير» (الحديد ١٥)

* * *

«إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ، فِى عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ» (١) .

نلمح من سر البيان فيها ، أنها «عليهم» بما تفيد من الإطباق الملاصق المباشر . ولا تقوم مقامها «فوقَهم» ، مثلا ، لاحتمال أن تكون الفوقية غير ملاصقة ولا مطبِقة ملابِسة

والعربية استعملت الوصيدَ للبيتِ الحصين يُتخذ للمالِ من حجارة فى الجبال . واستوصد فى الجبلِ : اتخذ فيه حظيرة من حجارة .

والعَمَد : جمع عمود ، وأصلُ استعماله فيما يقوم عليه الخباء ، وعمد الحائط دعَّمه . وسبق استقراء مادته فى ذات العماد من آية الفجر .

والمدُّ : الجذب للبسط ، وطِرافٌ ممدد مشدودٌ بالأطناب . ومدَّ بصره إلى الشىء طمح إليه . والمد فيضان الماء نقيض انحساره فى الجزر .

فسره الزمخشرى بقوله : فتُوصَد عليهم الأبوابُ وتمدد على الأبواب العمدُ استيثاقاً فى استيثاق ، ونظيره قول الشاعر :

تَحِنُّ إلى أجبالِ مكة ناقتى ومن دونها أبوابُ صنعاء موصَدَهْ

(١) قرأ «أبوبكر ، وحمزة ، والكسائى» : «فى عُمُد» بضمتين والباقون بفتحتين . (تيسير الدانى : ٢٢٥) .

ونؤثر أن نستأنس فى فهم الآية ، بالحِس اللغوى الأصيل للإيصاد ، بمعنى الإغلاق المحكم ، وباستعمال القرآن الكريم للمادة ، فى آياتها الثلاث :

الوصيد فى آية الكهف ١٨ :

« وكلبُهم باسِطٌ ذراعيه بالوصيدِ ، لو اطَّلعتَ عليهم لَوَلَّيتَ منهم فراراً ولَمُلِئْتَ منهم رُعْباً » .

ومؤصدة فى ختام سورة البلد :

« والذين كفروا بآياتنا هم أصحابُ المشأمة ، عليهم نارٌ مؤصدة » .

والآية مسبوقة ببيان لغرور المال وفتنته ، يُضِل الإنسانُ ضلالا بعيداً :

« يقول أهلكتُ مالاً لُبَداً ، أيحسب أن لم يره أحد » ؟

وفى آية البلد من إيصادِ النار وإطباقها المباشر ، مثلُ ما فى ختام سورة الهمزة :

« عليهم نار مؤصدة ، فى عَمَدَةٍ ممدة » .

نذيراً كذلك ووعيداً بويلٍ « لكلِ هُمَزَةٍ لُمزة ، الذى جمَعَ مالاً وعدَّده ، يَحسَبُ أن مالَه أخلده » .

صدق الله العظيم